

فمرض أياماً، ثم أسكت، [فبلغني أنه]<sup>(١)</sup>، سأل الله أن يريحه من الدنيا، فاستجاب دعاءه، [وسمع نداءه]<sup>(١)</sup> رحمه الله.

وفيها توفي الشريف البهاء الكاتب، وشمس الدين القواس.

### السنة السادسة والعشرون وست مئة

في صفر ولَّى الملك النَّاصر محيي الدِّين يحيى بن الزكي قضاء القضاة بدمشق، وقرأ عهده بهاء الدين بن أبي اليُسْر [بالكلاسة]<sup>(١)</sup>.

وفيها أعطى الكامل بيت القدس للإنبورور، ووصل [الإنبورور]<sup>(١)</sup> إلى يافا، وخرج الكامل من مِصر، فنزل تل العجول، وكان النَّاصر داود قد بعث الفخر بن بصاقة إلى الأشرف يستدعيه إلى دمشق، فوصل إلى النَّيْرَب، ونزل ببُستانه، وكان عز الدين أيبك قد أشار على النَّاصر بمدارة الكامل، وقال [له: لا]<sup>(١)</sup> تبعثُ إلى الأشرف وداوِ الأخطر. فخالفه، وقال الأشرف للنَّاصر: أنا أمضي إلى الكامل، وأصلح حالك معه. ومضى إليه، فوجده قد دفع القدس إلى الإنبورور، فشقَّ عليه، ولام الكامل، فقال: ما أحوجني إلى هذا إلا المعظم. أشار إلى أنَّ المعظم أعطى الإنبورور من الأردن إلى البحر، وأعطاه الكامل الضِّياع التي من باب القُدس إلى يافا وغيرها، ولما اجتمع الأشرف والكامل اتَّفقا على حصار دمشق، ووصلت الأخبار بتسليم القُدس إلى الفرنج، فقامت القيامة في بلاد [الإسلام، واشتدت العظائم بحيث إنه]<sup>(١)</sup> أقيمت المآتم.

قال المصنف: وأشار الملك النَّاصر داود بأن أجلس بجامع دمشق، وأذكر ما جرى [على البيت المقدس، فما أمكنني مخالفته، ورأيت من جملة الديانة والحمية للإسلام موافقته]<sup>(١)</sup>، فجلستُ [بجامع دمشق]<sup>(١)</sup> وحضر النَّاصر داود على باب مشهد عليّ، وكان يوماً مشهوداً، [لم يتخلف من أهل دمشق أحد]<sup>(١)</sup> ومن جُملة الكلام: انقطعت عن بيت المقدس وفود الزَّائرين، يا وَحْشة المجاورين، كم كان لهم في تلك الأماكن

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

من ركعة، كم جَرَتْ لهم على تلك المساكن من دمعة، تالله لو صارت عيونهم عيوناً لما وَقَّتْ، ولو تقَطَّعت قلوبهم أسفاً لما شفت، أحسن الله عزاء المسلمين، يا خجلة ملوك المسلمين، لمثل هذه الحادثة تسكب العبرات، لمثلها تنقطع القلوب من الزَّفَرَات، لمثلها تعظم الحسرات، [وذكر كلاماً طويلاً، وأكثر الشعراء في حديث القدس،] <sup>(١)</sup> وكان بعض أصدقائي نظم أبياتاً، فاقضى الحال إنشادها، وهي هذه الأبيات <sup>(٢)</sup>: [من الطويل]

صَلِّي بِالْبُكَاءِ الْآصَالَ بِالْبُكْرَاتِ  
لَهَيْبِ الْحِشَاءِ مِنْ عَاصِفِ الزَّفَرَاتِ  
تَوَقُّدَ مَا فِي الْقَلْبِ مِنْ جِمْرَاتِ  
يَرُوحُ مَا أَلْقَى مِنَ الْكُرْبَاتِ  
عَلَى مَوْطِنِ الْإِحْبَاتِ وَالصَّلَوَاتِ  
عَلَى مَشْهَدِ الْأَبْدَالِ وَالْبَدَلَاتِ  
أَنَافَتْ بِمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ صَخْرَاتِ  
يَرَى الْعَرْشَ وَالْكَرْسِيَّ ذَا الدَّرَجَاتِ  
صَلَاةُ الْبِرَايَا فِي اخْتِلَافِ جِهَاتِ  
وَأَشْرَفِ مَبْنِيِّ لَخَيْرِ بُنَاةِ  
سَلِيمَانَ رَبِّ الْمُلْكِ وَالزَّلْفَاتِ  
فِيْعِ الْعِمَادِ الْعَالِيِ الشُّرْفَاتِ  
وَاللِّبْرِ وَالْإِحْسَانِ وَالقُرْبَاتِ  
لِمَوْلَاهِ بَرٌّ دَائِمُ السَّجْدَاتِ  
تُوشَّحُ بِالْآيَاتِ وَالسُّورَاتِ  
وَمِنْ أَوْجِهٍ بِالْخَوْفِ مُمْتَقِعَاتِ  
وَأَفئِدَةٍ مِنْ رَبِّهَا وَجَلَاتِ

أَعْيَنِي لَا تَرْقِي مِنَ الْعَبْرَاتِ  
وَأَذْرِي دَمَوْعاً كَالشَّرَارِ يَطِيرُهُ  
لَعَلَّ سَيُولَ الدَّمْعَ يُطْفِئُ فَيُضْهِهَا  
وَيَا فَمُ بُخْ بِالشَّجْوِ مِنْكَ لَعَلَّهُ  
عَلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي جَلَّ قَدْرُهُ  
عَلَى مَنْزِلِ الْأَمْلاكِ وَالْوَحْيِ وَالهُدَى  
عَلَى سَلْمِ الْمَعْرَاجِ وَالصَّخْرَةِ الَّتِي  
عَلَى عَرْشِ مَلِكِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ قَبْلَ أَنْ  
عَلَى الْقِبْلَةِ الْأُولَى الَّتِي اتَّجَهَتْ لَهَا  
عَلَى خَيْرِ مَعْمُورٍ لِأَكْرَمِ عَامِرٍ  
وَمَعْمَارِ دَاوُدَ ذُو الْأَيْدِ وَابْنِهِ  
عَفَا الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى الْمُبَارَكُ حَوْلَهُ الرَّ  
عَفَا بَعْدَمَا قَدْ كَانَ لِلْخَيْرِ مَوْسِماً  
يُؤَافِي إِلَيْهِ كُلُّ أَشْعَثَ قَانِتِ  
خَلَا مِنْ صَلَاةٍ لَا يَمَلُّ مَقِيمُهَا  
خَلَا مِنْ جَسُومٍ بِالْعِبَادَةِ نُحَلِّ  
خَلَا مِنْ عِيُونٍ شُرَّهَ بِبِكَائِهَا

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

(٢) وقد أورد معظم أبيات القصيدة كذلك أبو شامة في «كتاب الروضتين»: ٤/ ٣٣٥-٣٣٦ بتحقيقي.

بدا منهم من سالفِ الفرطاتِ  
وتسبيحهم في حالِك السُدُفاتِ  
وتعلنُ بالأحزانِ والتَّرحاتِ  
يرحن بها ما عشن متشحاتِ  
زماناً من الأسواءِ محتمياتِ  
وتشكو الذي لاقت إلى عرفاتِ  
وساكنها المدفون في الحُجراتِ  
تداركها من هذه الهلكاتِ  
وتصبحُ من أمثالها حذراتِ  
وشرُّ البلايا طارقُ البغياتِ  
وقد كان مجدداً باذخ العُرفاتِ  
لهم عَظْمُ ما نالوا من العَزواتِ  
بمَسَعاتِهِ عُدُوا من السَّرواتِ  
وهل ثمرٌ إلا من الزَّهراتِ  
شَجَانا بأصواتِ لهنَّ شُجاةِ  
يُؤبِنُ فيه خَيْرَةَ الخِيراتِ  
ومَنزِلُ وحي مُوحِشِ العَرَصاتِ

خلا من أنين النّادمين على الذي  
خلا من صلاة العارفين لربهم  
لتبك على القدس البلادُ بأسرها  
ويلبسن أثوابَ الجِدادِ تأسفاً  
فقد كُنَّ منه في خفارةِ رحمةِ  
لِتَبْكِ عليه مكة فَهَي أخته  
لِتَبْكِ على ما حَلَّ بالقدُس طيبة  
لعلَّ رسولَ الله يسألُ رَبَّهُ  
لِتَبْكِ بلادُ الشّامِ للقدُسِ خاصّةِ  
لقد طرَقَ الإسلامُ يا حارِ بغتةِ  
لقد هدموا مجد الصّلاحِ بهدمه  
وقد أحمدوا صوتاً وصيتاً أثاره  
أما عَلِمْتَ أبناءُ أيوبَ أَنَّهُمْ  
وَأَنَّ افتتاحَ القدُسِ زهرةُ مُلكهم  
فمن لي بنُواجٍ يَنُحِنَ على الذي  
يُرَدِّدُنْ بيتاً للخِزاعيِّ قاله  
مدارسُ آياتِ خَلَّتْ من تلاوةِ  
من آيات.

وأكثر الشعراء في ذلك، وحكي أنّ فقيراً بات بالقدس، فسمع قائلاً يقول في الليل:

[من الخفيف]

وتهدّمتُ ثمّ دامَ هلوكي

سمة العارِ في حياة الملوِكِ

ومضى عز الدين أيدمر إلى الكامل من نابلس، وكان النَّاصر قد أهانه، فأعطاه

عشرين ألف دينار، وغرّقه بالإنعام، وكذا العزيز، وكان الكامل قد عزمَ على العُودِ إلى

إن يكن بالشّامِ قلّ نصيري

فلقد أصبح الغداة خرابي

مِصْر، فقال: قد جاءني مفتاح الشَّام. وسار إلى دمشق، [(١) ونمي (٢) إلى الأشرف والكمال أني قد أفتيت بقتالهما على المنبر، فأرعدا وأبرقا، وتواعدا عليّ (٣) وتهددا، ولذكر الله أكبر، فتوكلت على الله، ومن يتوكل على الله فهو حسبه، واعتمدت عليه، ومن يعتمد عليه يصفو له شره، وأحيط بدمشق من كل جانب]، وحلَّ بها من الخراب والفساد والعجائب، وقبض النَّاصر على الفخر بن بصاقة، وابن عمه المكرم، وقيدهما ورماهما في الجُبِّ، واستأصلهما، وكان قد اتَّهم الفخر بالأشرف، وأنه لما مضى إليه في الرِّسالة واطأ على النَّاصر، وقال: هذا صبيٌّ لا يصلح للملك، وأنت أولى، [(٤) فبلغني أنهما] تعابتا في الجُبِّ، فقال الفخر للمكرم: بعد الأمر والنهي والجاه أصارنا الدَّهر إلى الحبوس والقيود، فسبحان مزيل النعم! فقال له المكرم: سبحانك! أي: أنت كنتَ السبب.

وفيهما دخل الإنبرور إلى القُدس، والحصار على دمشق، [وجرى له عجائب، منها أَنَّهُ] (٥) لما دخل الصخرة رأى قسيساً قاعداً عند القدم، يأخذ من الفرنج القراطيس، فجاء إليه كأنه يطلب [منه] (٥) الدعاء ولكمه، فرماه إلى الأرض، وقال: يا خنزير، السلطان تصدَّق علينا بزيارة هذا المكان تفعلوا فيه هذه الأفاعيل! لئن عاد دخل واحد منكم على هذا الوجه لأقتلنه. [وحكى صورة الحال قوام الصخرة، قالوا] (٥)، ونظر إلى الكتابة التي في القُبَّة: وقد ظهَّر هذا البيت المقدَّس صلاحُ الدين من المُشركين. فقال: ومن هم المشركون!

وقال للقوام: هذه الشُّباك التي على أبواب الصَّخرة من أجل أيش؟ قالوا: لثلا تدخلها العصافير. فقال: قد أتى الله إليها بالخنازير.

(١) في (ح): وسار إلى دمشق، وأحرق العسكر بها، والمثبت ما بين حاصرتين من (ش).

(٢) ونمي، ساقطة من (ش)، وهي زيادة من عندنا لتستقيم العبارة.

(٣) في (ش): عليه، والمثبت يستقيم مع سياق العبارة.

(٤) في (ح): وتعابتا...، والمثبت ما بين حاصرتين من (ش).

(٥) ما بين حاصرتين من (ش).

[قالوا]<sup>(١)</sup>: ولما دخل وقت الظهر، وأذن المؤذن قام جميع مَنْ كان معه من الفَرَّاشين والغلمان ومعلمه - وكان من صِغَلِيَّة يقرأ عليه المنطق - فصلُّوا، وكانوا مسلمين.

[قالوا]<sup>(١)</sup>: والظاهر من كلام الإنبرور أنه كان دهرياً، وإنما كان يتلاعب بالنصيرية.

[قالوا]<sup>(١)</sup>: وكان الكامل قد تقدّم إلى القاضي شمس الدين قاضي نابلس أن يأمر المؤذنين ما دام الإنبرور بالقدس لا يصعدوا المنابر، وإنما يؤذنون في الحرم، فأنسى القاضي أن يُعلم المؤذنين، فصعد عبدُ الكريم المؤذن في تلك الليلة وقت السحر، والإنبرور نازل في دار القاضي، فجعل يقرأ الآيات التي تختصُّ بالنصارى مثل قوله تعالى: ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلِيٍّ﴾ [المؤمنون: ٩١] ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [مريم: ٣٤] ونحو هذا، فلما طلع الفجر استدعى القاضي عبدَ الكريم وقال له: أيش عملت؟ السلطان رسم كذا وكذا. قال: ما عرّفتني والتوبة. فلما كانت الليلة الثانية ما صعد [عبد الكريم المثدنة]<sup>(١)</sup>، فلما طلع الفجر استدعى الإنبرور القاضي، وكان قد دخل القدس في خدمته، وهو الذي سلّمه إليه، فقال له: يا قاضي، أين ذاك الرجل الذي طلع بارحة أمس المنارة وذكر ذاك الكلام؟ فعرفه أنّ السلطان أوصاه. فقال الإنبرور: أخطأتم يا قاضي، تغيرون شعاركم وشرعكم ودينكم لأجلي! فلو كنتم عندي في بلادي هل كنت أبطل ضرب الناقوس لأجلكم؟ الله الله لا تفعلوا، هذا أول ما تنقصون عندنا. ثم فرّق في القوام والمؤذنين والمجاورين جملة، أعطى كلّ واحد عشرة دنانير، ولم يقم بالقدس سوى ليلتين، وعاد إلى يافا، وخاف من الدأوية، فإنهم عزموا على قتله، وكان أشقر أمعط، في عينيه ضعف، لو كان عبداً ما ساوى مئتي درهم.

وفيها اشتدَّ الحصار على دمشق، فألجأت الضرورة أنّ الناصر خرج إلى [عمه]<sup>(١)</sup> الكامل، وأعطاه الكرك وعجلون والصّلت ونابلس والقدس والخليل، وأخذ منه الشوبك، وسلّم إليه دمشق، [وكان نزوله على دمشق]<sup>(١)</sup> في ربيع الآخر من هذه السنة، وتسلمها غرة شعبان، أقاموا عليها أربعة أشهر، وسلّم الكامل دمشق إلى الأشرف.

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

ونزل الخوارزمي على خِلاط، وضايقتها، وأقام عليها إلى السنة الثانية، ونزل عليه الثلج، وحفروا سراباً له ولأصحابه، ولم يزل حتى أخذها عنوة في السنة الآتية. وسار الكامل إلى حماة، فحصرها، وأخذها من الناصر قليج رسلان، وأعطها لمحمود بن المنصور، ولقبه المظفر، وكلاهما ابنا أخته.

وسار الناصر داود إلى الكرك، وكان قد بكى بين يدي الكامل على الشؤبك، فقال الكامل: أنا ما لي حصن يحمي رأسي، وهَبْ أنك وهبتني إياه. فسكت.

وأقام الأشرف بدمشق، فدخل عليه ابنُ عُتَيْن، فلم ير منه ما كان يعهده من مجالس المعظم، [وما كان يجري فيها من الهنات، وقذف المحصنات، فإن ابن عنين كان هجاءً، خبيث اللسان،] <sup>(١)</sup> فَشَرَعَ فيما كان يفعله، فنهاه الأشرف، وقال: ما مجالسي كما عهدت، يكفيني ما أنا فيه حتى أضيف إليه ثلب [أعراض] <sup>(١)</sup> المسلمين! فخرج من عنده، [وكان شاعراً لبيباً كثير الكلام، فأخذ يصنف هجاءه، وقد] <sup>(١)</sup> عمل فيه: [من الطويل]

وكنا نرجي بعد عيسى محمداً  
لينقذنا من شِدَّة الضُرِّ والبَلْوَى  
فأوقعنا في تيِّه موسى كما ترى  
حيارى فلا مَنْ لديه ولا سَلْوَى <sup>(٢)</sup>  
وبلغ الأشرف، فقال: هذا الملعون، إذا لم يكن عندي مَنْ ولا سلوى، فعند مَنْ! وأمر بقطع لسانه، فدخل على جماعة، وحلف أنه ما قال هذا. فقال الأشرف: هذا ما أفلت من لسانه أحد، ولا بُدَّ من قطعه. فهرب إلى بلاده ازرع وحوران، وسكت الأشرف عنه.  
وفيها توفي

### أقسيس <sup>(٢)</sup>

الملك المسعود بن الكامل، صاحب اليمن.

بلغه موت المعظم [في سنة خمس وعشرين وست مئة] <sup>(١)</sup>، فطمع في الشَّام، فجهَّز من اليمن بجهاز لم يسبقه إليه أحدٌ من الملوك، ونادى في بلاد [اليمن في] <sup>(١)</sup> التَّجَّار:

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

(٢) ديوانه: ١٣٢ مع اختلاف في بعض الألفاظ.

(٣) له ترجمة في «التكملة» للمنزدي: ٢٤٤/٣، و«المذيل على الروضتين»: ١٧/٢، وفيه تنمة مصادر ترجمته.

من أراد صحبة السلطان إلى الديار المصرية، فليتهجز. فجاء التجار من الهند بأموال الدنيا والأقمشة والجواهر، فلما تكاملت المراكب بزيد جمَعَ التجار، وقال: اكتبوا لي بضائعكم وما معكم لأحميها من الزكاة والمؤن. فكتبوها له، فصار يكتب لكل تاجر برأس ماله إلى بعض بلاد اليمن، ويستولي على ماله، ففعل بالجميع كذا، فاجتمعوا، فاستغاثوا، وقالوا: نحن قد جئنا من بلدان شتى، وفينا من أهلها بإسكندرية والقاهرة ومصر والشام والروم، ولنا مدة سنين [ونحن بعيدون]<sup>(١)</sup> عن أهلنا، وقد اشتقنا إليهم، فخذ أموالنا، وأطلقنا نروح إلى أهلنا. فلم يلتفت إليهم، وأخذ الجميع [فبلغني أنه كان]<sup>(٢)</sup> ثقله في خمس مئة مركب، ومعه ألف خادم، ومئة فنطار عنبر وعود ومسك، ومئة ألف ثوب، ومئة ألف صندوق أموال وجواهر، وركب الطريق إلى مكة، ولما وصل بعض الطريق مرض مرضاً مزمناً، فما دخل مكة إلا وقد فلج، ويبست يداه ورجلاه، ورأى في نفسه العبر، فلما احتضر بعث إلى رجل مغربي بمكة، فقال: والله ما أرضى لنفسي من جميع ما معي كفنًا [أتكفن به]<sup>(٣)</sup>، فتصدق عليّ بكفن، فبعث له بنصفتين بغدادي، ومئتي درهم، فكفونه فيهما، ودفن بالمعلی. وقيل: إن الهواء ضرب بعض المراكب، فرجعت إلى زيد، فأخذها أصحابها. [وبلغني عن الكامل أنه سر بموته]<sup>(٤)</sup>، ولما جاء خزنداره إليه ما سأله كيف مات، بل قال: كم معك من المال والتحف. [وقد ذكرنا ما فعل أقيسوس وضربه الحرم بالبندق، فعوقب سريعاً، وضربه القدر ضرباً وجيعاً]<sup>(٥)</sup>.

### الحسين بن هبة الله<sup>(٥)</sup>

ابن محفوظ بن صصري، أبو القاسم، الدمشقي.

(١) زيادة من عندنا يقتضيها السياق.

(٢) في (ح): وأخذ الجميع، فكان ثقله، والمثبت ما بين حاصرتين من (ش).

(٣) ما بين حاصرتين من (ش).

(٤) في (ح): وسر الكامل بموته، والمثبت ما بين حاصرتين من (ش).

(٥) له ترجمة في «التكملة» للمنزدي: ٣/ ٢٤٠-٢٤١، و«تاريخ الإسلام»: (وفيات سنة ٦٢٦هـ)، و«سير أعلام

النبلأ»: ٢٢/ ٢٨٢-٢٨٤، و«المذيل على الروضتين»: ٩/ ٢، وفيه تنمة مصادر ترجمته.